باب الصحة والعلاج

الوراثة المرضيّة

كل حيّ يحكم ناموس في الطبيعة عام هو الوراثة يرث من جميع الصفات الطبيعيّة والاديبيّة والاميال العقلية والحالات المرضية التي لابويه ظاهرة فيهما كانت ام كامنة مكتسبة ام خلقية. ويراد بالوراثة المرضية لا المرض نفسهُ بل الاستعداد لهُ او القابلية التي في البدن المكتسبة منذ العلوق للوقوع في المرض بحسب ما يناسب من الاسنان ويساعد من الاسباب. ولذلك كان لعلم حفظ الصحة شأن عظيم في مقاومة الامراض الوراثية اذ يشترط في كل مرض وراثي امران احدهما استعداد في البدن والثاني موافقة الاسباب الخارجية لتنبيه هذا الاستعداد وهذا في امكان علم حفظ الصحة مداركتهُ. وزد على ذلك ان في البدن من اصل الفطرة قوة مصلحة لاختلالهِ تحافظ على نظامهِ وتميل الى اصلاحهِ كلما اختل ولذلك كان لافعال الوراثة حدود ولولا ذلك لمرض جميع المولودين من آباء بهم علل وراثية وما نراهُ فبالضد فكثيرًا ما لا تنتقل العلة من آباء مسلولين الاّ الى ابناء معدودين ونحو الباقون

وانتقال العلل الوراثية لا ضابط لهُ بل يكون على انحاء شتى فقد تنتقل من الابوين الى البنين رأسًا او من الاجداد الى الاحفاد وتترك الآباء او تنتقل الى اقارب بعيدين ايضًا وقد تعرض لاحد الجنسين وتترك الجنس الآخر فقد ذكر ان أمًّا توفيت بداء السرطان فعرض لبناتها الثلاث واما الصبيان فلم يعرض لهم. ونحن نعرف عائلة مسلولة عرض الداء لاربعة من ذكورها واما البنات فلم يصبن بهِ. وانتقال الداء اليهم لم يكن من الابوين رأسًا بل من الاعمام لان الابوين نفسهما عمرا طويلاً وماتا بغير هذا الداء

وتمتاز الامراض الوراثية بانهُ لا نسبة بين شدتها والاسباب المتممة لها وبانها سهلة الانكاس وتظهر غالبًا في نفس الوقت الذي ظهرت فيهِ في الاقارب وتصيب نفس الاعضاء التي اصابتها فيهم. وبينها وبين الاسنان نسبة فكل شيء يحدث في البدن تغيرات تجعلهُ اصلح لظهور هذا المرض المنهيء لهُ ام ذاك بل يجعل ايضًا هذا العضو اصلح لظهور المرض من سواهُ من الاعضاء. ولا نعلم اسباب ذلك واعلها تبقى سرًّا مغلقًا زمانًا طويلاً ولهذا كان بعض الامراض الوراثيّة يظهر منذ الطفوليّة وبعضها يكمن في البدن ولا يظهر البتة لفقد

الاسباب المتممة لظهوره خارجيّة كانت ام داخليّة . و يندر جدًّا ان العلة الموروثة تظهر منذ الولادة والغالب ان تكون في المولود بالقوة فقط مثال ذلك الزهري فان الوارث له من المولودين حديثًا لا يكون به اعراض الزهري الخاصة وانما يكون ضعيفًا ذابلاً مستعدًّا لعلة علل مفسدة للتغذية . والمولودون من آباء مسلولين قلما يعرض السل لهم في طفولتهم في رئتهم والغالب انهم يصابون بوحيشذٍ في سحايا هم اعني اغشية دماغهم لامتلاء دماغهم واغشيته بالدم في هذا السن ولهذا السبب عينه كان يكثر فيهم ايضًا العقد الخنازيريّة وتدرُّن العقد المساريقيّة . واما السرطان فيغلب بين سن اربعين وستين سنة . وكل مرض موروث اذا تجاوز السن الذي يظهر فيه ولم يظهر فقد قل خطر ظهوره لذلك اذا جاوز وارث السل سن ٣٦ سنة ولم يظهر الداء به فليأمل ان يعيش و يصير شيخًا هرمًا . وتدرُّن الغدد المساريقيّة لا يكون وحدهُ البتة بعد سن سنتين

ولمقاومة هذا الاستعداد الوراثي ينبغي مراعاة جملة شروط تنحصر اكثرها في الزواج والرضاع والقوانين الصحيّة العموميّة . اما الزواج فشرطهُ في البشر ان لا يجمع فيه بين الاقارب الاَّ في ما ندر وما ذلك لان الجمع مضر بجد نفسهِ كلاَّ بل بالضد من ذلك اذا روعيت فيه شروط خصوصيّة فقد ينفع كما هو معلوم من الجمع بين الاصول المتقاربة من الحيوان فالخيل العربيّة الخالصة من كل شائبة غريبة ليس افضل منها في جمالها وصحة ابدانها وما ذلك الاَّ لانهم لا يجمعون بينها الاَّ بعد ان ينتقوا الجياد منها و بذلك يحفظون اصلها على جمالهِ و يزيدون في تحسينهِ ايضًا وعلى ذلك جرى كثيرون من اصحاب المواشي فربوا فروعًا حيوانيّة جديدة حسنة بالانتخاب والمحافظة على الجمع بين الجياد منها ولكن ذلك قلما يراعى بين البشر فلا يراعون في الزواج بين الاقارب الصفات الصحيّة الطبيعيّة بل اوجه المناسبة من حيث الثروة او ما شاكل . فاذا كان في العائلة داء عضال تجسم فيها حتّى يأتي اخيرًا على قرضها ولذلك كان اصطلاح الهيئة الاجتماعيّة على تحريم الزواج في درجات من القربى معلومة امرًا حميدًا جدًّا ويجب تبعيد ذلك اكثر جدًّا في اصحاب الامراض الوراثيّة لاضاعة امراضهم واكتساب قوى جديدة صحيحة بافترانهم باباعد اصحاء

و ينبغي اعتبار نسبة السن بين الزوجين فان اختلاف هذه النسبة كثيرًا ما يؤدي الى الاسقاط . وفي اعتبار عيوب الحوض لا ينبغي الاقتصار على معرفة قد المرأة فقط بل ينبغي اعتبار حجم راس الرجل ومنكبيهِ لان الوراثة تنقل ايضًا صفات كل عضو من اعضائهِ وخصوصًا . لذلك اذا لم تعتبر هذه النسبة زاد الاسقاط في الحمل او العوارض في الولادة

و ينبغي كذلك اعتبار السن في الزوجين لان ذلك يؤثر جدًّا في صحة الاولاد فان كانا حديثي السن كثيرًا كان نسلها ضعيفًا وسهّل ذلك ظهور الامراض الوراثيّة فيه في المستقبل فقد رأوا ان البكر من الاولاد يكون غالبًا اضعف في بنيته وعرف المعلمون ان الاصغر يكون غالبًا ابله في عقله . وان كانا متقدمين في السن جدًّا كثر تعرّض الاولاد لداء رخاوة العظام وكانوا عديمي النشاط والانبساط اللذين هما من خصائص الطفولية ومات اكثرهم بالسل وان لم يكن الداء بأبويهم ومن يجو منهم فلا ينمو كما ينبغي ولا يسلم من عذاب علل البواسير

و ينبغي ايضًا اعتبار الامزجة والمضادة بينها لكي يقاوم المزاج الصحيح المزاج العليل والتخلص بذلك من تمكن الامراض الوراثيّة فيمنع الزواج بين اثنين معرضين للخنازيري او الامراض الصدريّة او للسرطان او لمرض من الامراض العصبيّة . والامراض العصبيّة فلما كانت تعتبر في الماضي لقلة معرفتهم لطبيعتها واما الآن فقد عرفت هذه الامراض جيدًا وصار اعتبارها من هذا القبيل واجبًا جدًّا لان هذه الامراض تظهر على اشكال مختلفة فقد تكون في الآباء صداعًا بسيطًا وتظهر في الاولاد على شكل صرع او هستيريا او جنون ولذلك كان ينبغي المخالفة في الجمع بين الامزجة ما امكن من حيث الصحة والمرض فان ذلك كثيرًا ما تزول به الاستعدادات المرضية بخلاف المقارنة بينها فان الجمع بين زوجين احدهما معرض للخنازيري والآخر للسل تكون نتيجته شرًّا على الاولاد وعلى الهيئة الاجتماعيّة حال كون اقتران ابنة من عائلة بها السل برجل قوي البنية صحيحها قد يجعلها تلد اولادًا اصحاء ان تزوجوا باخرين من دم صحيح خلقوا نسلاً لا عيب فيه واضاعوا استعداد أمهم الموروث

فان لم تعتبر هذه الشروط في الزواج ووقع المحذور فما علينا الاّ السعي لاصلاح امزجة الاولاد بالتدبير الصحي قبل ان يتمكن الاستعداد الوراثيّ منهم فيمنع ارضاع الاطفال من امهاتهم ويسلمون الى ظئر (مرضع) قويّة البنية صحيحة الدم ويطال زمان ارضاعهم . و بعد الفطام ينتبه جدًّا لاصلاح امزجتهم بالوسائل المناسبة من غذاء وهواء واقليم بحسب طبيعة المزاج المتغلب عليهم ولا ريب في ان الرياضة المعروفة بالجمناز من افضل الوسائل التي تتقوى بها البنية وتنقى من ادران الداء ولذلك ينبغي ادخال هذا الفن الى المدارس وما احرى مدارس الشرق بالانتباه اليه . والتعليم نفسه يساعد جدًّا على اصلاح الصحة اذ يجعل الانسان اقدر على استحصال ما ينفعه ودفع ما يضرّه فعلى الاباء ان لا يبخلوا على اولادهم بتهذيبهم ودفعهم الى معلمين عارفين باصول التعليم لا يضعون الندى في موضع السيف ولا السيف في موضع الندى و يراعون قابليات الاولاد فلا يحثون من يستحق الحث منهم بالتقريع

حيث يكفي التنشيط ولا بالتنشيط حيث يلزم التقريع فان هذه مسألة عظيمة الاهمية فكم من العقول الذكية تحترق في المدارس بسوء تصرف المعلمين . وان لا يخلوا عليهم بتسليمهم الى مدارس مستوفية قوانين الصحة حيث تراعى صحة الاولاد من جهة الغذاء والهواء والرياضة لكي تصطلح صحة الاعلاء لا لكي تعل صحة الاصحاء وهذا امر شديد الاهمية ولعل مدارسنا في الشرق تنتبه لذلك حق الانتباه وتزيد في اصلاحه سنة فسنة رحمة بهؤلاء الاطفال الذين يتوقف على صحة ابدانهم وصحة عقولهم مستقبلهم ومستقبل بلادهم

تدبير المرضى بالوسائل الصحيّة (اي الهيجينيّة)

هذا مبحث مهمّ جدًّا وعليه المعوّل في عمل الطبّ ويعوّل فيه على علمه . وعلم الطب قسمان حفظ الصحة حاصلة وهو يكون بتعرّف قوى البدن الصحيح وافعاله اعني وظائفه وما يؤثر فيها من الاشياء التي من خارج كالهواء والغذاء والشراب والمسكن الخ لاستحصال النافع منها ودفع الضارّ . واسترادها زائلة وهو يكون بالوسائل المتقدّمة وتعرّف خواص الادوية الى غير ذلك من الوسائل واستخدام النافع منها . وهو مبحث من اصعب مباحث الطب لصعوبة الإلمام بهذه الموضوعات وكثرة التوهم فيها لكثرة اختلافها بحيث يكاد لا يتفق فيها وجود حالين متساويين فلا تكاد ترى احوال الاقليم الواحدة متساوية في وقتين ولا المرض الواحد متساويًا في مريضين ولو مهما تساوت احوالها . لان سنن الطبيعة وان كانت تميل الى السلوك في ادوارٍ منتظمة الاّ ان العوامل التي تستخدمها في ذلك مختلفة جدًّا . وقلّما يقع التساوي اذا كثرت عوامل الاختلاف . لذلك كانت هذه الادوار المتساوية في الظاهر مختلفة في الواقع . وان كان ذلك لا يبدو لنا جيدًا في الاحوال المتقاربة فلأن الوسائل التي لنا ضعيفة عن دركه ولأن هذا الاختلاف متقلّب اعني انه لا يسير سيرًا واحدًا على نهجٍ واحدٍ فيتباعد من جهة ويتقارب من اخرى ويسير سيرًا معرّجًا بحيث لا ينطبع عليه اثر المباينة الكلية ويبدو لنا واضحًا الاّ بعد الزمان الطويل اعني بعد الوقت السنين بل شهات الوفها والوف الوفها . ولا نعني بذلك ان سنن الطبيعة بحدّ ذاتها ليست واقعة تحت ربط او ضبط شبيهٍ بربط القواعد الرياضية وضبطها كلاّ بل بالضد من ذلك كل ما فيها — ولا يستثنى شيء — خاضعٌ لهذه القواعد وليس عملٌ طبيعي او غير طبيعي (كما يقال جريًا على التسمية والاّ فمرجع الكل الى واحد) خارجًا عن هذا الحكم حتّى العقل نفسه . وانما اختلاف اجتماع هذه العوامل يؤدي ضرورة الى هذه النتيجة على حكم القواعد الرياضيّة وان لم يتسنّ لنا دركه

في كل الاحوال . وما زال هذا حال الاشياء في الطبيعة فالطب كثير العثرات ولهذا كان يتعذّر على الطبيب ان يضمن شفاء سقيم يكاد يشقّ البشرة ولا يكاد يبلغ الأدمة ولا يتعذر عليه ان يرجو ان ينفخ الروح في مريض اشرف على الموت . اعني انه لا يستطيع ان يضمن سلامة اخفّ الادواء ولا يجوز له ان ييأس من اشدها ما دام برؤه في حدّ الممكن اعني ما دامت الاعضاء اللازمة سليمة من نقصان مادّة لا تقوم الوظيفة بدونها . على انه وان كان يتعذر على الطب ضبط هذه الاحكام والاحاطة بها لغرضه لا لعدم جري احكامه كما يتهم البعض مجرى الاحكام الرياضيّة ولكن لاعتراض امور اخرى كثيرة تخفى عليه تخونه في ما يتوقّع انما لا ينكر أن الجدّ يذلّل له كثيرًا من هذه المصاعب وان تقلبت عليه الآراء وابطا السير في هذه الجادة . و يضبط كثيرًا من احكامه وكلّياته التي يقيه الاعتصام بها كثيرًا من عثراته وان لم يستطع دفعها كلها كما ترى في النبذة الآتية التي نوردها عليك في تدبير المرضى ما يريك الفرق مجملين غير مفصّلين لان في الاجمال نظرًا في كليات الاحكام والكليات من احسن ما تستقيم معه الافعال . ولذلك كل علم وفرت كلياته (اذا صحّت) هان لان الالمام بالكليّات اسهل من الجزئيات وان كان يبنى عليها وأفيد لانه يوقفك على الرابط فيدع عملك مربوطًا معقولاً

اعلم ان الانسان في الاصل لم يكن له من الوسائل الصحيّة الاّ اليسير ولا جرم كان طبه في اوّل امره قاصرًا على استعمال بعض الاشربة والتدفوء والدلك دون التداوي بالنباتات التي حوله لانه كان يجهل خواصّ هذه النباتات كما يظهر لك بقياس التمثيل من القبائل التي لا تزال الى الآن على الفطرة تعيش كما كان الانسان يعيش في العصر الحجري فان سكان ارض النار اي الفوجيين اليوم كما انبأنا ثقات المخبرين لا يعرفون التداوي بغير الدلك والحمامات البخاريّة يصنعونها بايقاد النار تحت دثار المريض والحمامات الباردة حيث يُفرَض على الوالدة ان تستحمّ بالماء البارد بعد الوضع حالاً . ولا يتداوون بنباتات بلادهم لانهم يجهلون خواصها الطبيّة . ولهم سوى ذلك عادة ظاهرها فظيع وهي انهم اذا رأوا المريض يجود بنفسه في اواخر النزع عجّلوا عليه فنفّسوه و يأتونها لا قساوة بل رحمة به تخفيفًا لعذابه

وكانت هذه العوائد عند الهنود في الاصل دينيّة وقد دامت ثلاثة قرون كما عُلم من كتبهم الدينيّة المسماة "فيدا" وعلى الخصوص "الرغ فيدا" و"قانون مانو" فكان لهم آلهة يسهرون على الطب و يعتنون بكل ما يتعلق بامر الصحة و يسمونهم "اذوين" وكان للهواء

والماء في الصحة والمرض مقام عظيم عندهم كما يظهر لك من الابتهال الآتي وهو مقدّم الى الاله المسمّى عندهم " وزوذوا " وهو :

" يا الله الانسان ضعيف . يا الله انت مدبّره . يا الله الانسان خاطيء . يا الله انت معيده "

" ريحان تهبّان احداها من البحر والاخرى من البر القاصي . فليهبك هبوب الواحدة القوّة وليذهب عنك هبوب الاخرى بالمرض "

" ايتها الريح إبني بالدواء . ايتها الريح اذهبي بالداء فان فيكِ كل الشفاء وانتِ رسول الآلهة قالت الريح : اني آتية اليك بالسعادة والصحة ومقبلة عليك بالقوّة والجمال وذاهبة عنك بالمرض "

" الامواج تبرئ . الامواج تدفع المرض . وفيها كل انواع الدواء فانهبْ الشفاء "

فبمثل هذه الوسائل ونظائرها كان الهنود يحفظون الصحة ويدفعون المرض

والشعب الذي اعتنى بالوسائل الصحية اعتناء عظيما وزاد فيها زيادة مهمة واحترمها احتراماً مقدّساً كذلك هو الشعب الاسرائيلي حيث نظر الشارع فيهم بالتفصيل الى نوع المأكل والمشرب والاغتسال وسائر اسباب المعايش وفرض عليهم احترامها فرضاً دينياً محللاً الطاهر (اي النافع) منها ومحرّماً غير الطاهر كما في التوراة مما لا يزال مرعيّاً عندهم حتّى اليوم

واما المصريون فقد حذوا في ذلك حذو اهل الهند وكان طبّهم قاصراً على وسائل حفظ الصحة وانما كان الحمامات والرياضة (الجمناز) والدلك وعلى استعمال بعض الادوية المسهلة وكل ذلك تحت قوانين وضوابط معيّنة عندهم

ولم يتسع نطاق وسائل حفظ الصحة كما ينبغي الاّ عند اليونان لما في نفوس هذا الشعب من حبّ الاتقان في كل امر كما تشهد بذلك الآثار التي تركوها بعدهم . ولكي يبينوا العلاقة الشديدة بين حفظ الصحة وبرء المرض زوّجوا في خرافاتهم " هيجيا " الهة الصحة الى " اسكولابيوس " اله الطب على ان اعتماد كهنة هذا الاله في مداواة المرضى وبرء العلل كان على التدبير الصحي اكثر منه على الادوية والعقاقير كما تدل على ذلك معابدهم التي كان المرضى يقصدونها فانها كانت جامعة اسباب الصحة من موقع جيد على شطوط البحار ومنظر جميل محفوف بغابات الاشجار المقدسة متوفرة فيها منافع الماء والهواء والغذاء مع فوائد تأثير الوهم في الاذهان اذ ان المرضى كانوا يقصدون هذه الاماكن مؤمنين مصدّقين

ويزيدهم ثقةً في ايمانهم واملاً في توقعهم ما برونهُ مكتوبًا على جدار المعبد من عجائب البرء التي تمت فيهِ وهذا كلهُ من وسائل التدبير الصحي وفي النادر جدًّا كان الكهنة يزيدون على هذه الوسائل استعمال بعض العقاقير واخصها الخربق . ثم انشعبت طائفة الكهنة فرقتين فرقة لازمت المعابد وفرقة ذهبت تضرب في الارض وانتشرت في بلاد اليونان وسائر المشرق ومن هذه الفرقة نبغ ابو الطيب ابقراط الشهير ستأتي البقيّة

المناظرة والمراسلة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناهُ ترغيبًا في المعارف وانهاضًا للهمم وتشحيذًا للاذهان . ولكنّ العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فنحن براء منهُ كلهِ . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمهِ ما ياتي : (١) المناظر والنظير مشتقّان من اصلٍ واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيرهِ عظيمًا كان المعترف باغلاطهِ اعظم

(٢) خير الكلام ما قلَّ ودلَّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطوّلة

ردّ على انتقاد

حضرة الفاضلين منشئي المقتطف

قرأت في مقتطفكم الاغر الرسالة التي بعث بها اليكما احد القراء الافاضل وقد ذكر فيها حضرتهُ بعد الثناء على مقالتي "الذوق في اللغة والانشاء" انهُ انكر عليَّ امرين كان يودّ الاّ يراهما فيها لان احدهما لغوٌ والثاني استشهاد في غير محلهِ

فانا اشكر صاحب الرسالة على استهلال كلامهِ بمدح مقالتي . وان كانت هي غير جديرة بما وصفها بهِ من التحلي بحلل العلم والفلسفة . وشكري لا يقصر على مدحهِ لمقالتي بل يشمل انتقادهُ عليها ايضًا . لاعتقادي ان حضرتهُ لو لم يحسن منواها وينظر اليها بعين الاحتفاء لما ظنها خليقة بالاعتبار والانتقاد

غير انني استاذن مناظري بالرد على انتقادهِ من اوجه كثيرة . واؤمل الاّ يعزي ذلك الى المكابرة . معاذ الله . فان المكابرة عندي اول عدوّ للعلم واكبر ناصر للجهل . فأقول :

لم يراعِ حضرتهُ في رسالتهِ القاعدة الاولى للانتقاد وهي "ايراد الراي المنتقد عليهِ بنفس الالفاظ التي جاء بها صاحب هذا الراي" ولا يخفى ما لهذه القاعدة من الصواب والعدالة .